محاضرات في أدب المركز والهامش 2019-2020

المحاضرة الأولى – مفهوم الهوية والغيرية كإشكالية فلسفية حداثية

لا يمكن الحديث عن المركز والهامش إلا بعدهما تمثلين لجوهرين للأنا و الآخر، أو ما يمكن أن يترجم إلى الهوية والغيرية. وعليه فمفهوم الغير كاشكالية هو مفهوم فلسفي حديث؛ فقد طرح اليونان مفهوم الآخر في إطار انطولوجي عام في مقابل مفهوم الهوية أو الذات,فكل شيء هو هو بالنسبة لذاته (مطابق لذاته) وآخر بالنسبة لغيره (أي مخالف لغيره)، وبالتالي فمفهوم الآخر بوصفه المختلف يبدأ من مجرد التغاير الذي يفيد الاختلاف مع وجود تشابه إلى أن يصل إلى التضاد والتنافي أو التغاير المطلق.والتقابل الأساسي لدى اليونان كان بين الإنسان والعالم بصفة عامة وبين الشعب اليوناني والشعوب الأخرى .ولم يطرح مفهوم الهوية و الغيرية كاشكالية فلسفية إلا في الفلسفة الحديثة.

– الهوية بين الجوهر والعلاقة:

لا يمكن الحديث عن المركز والهامش إلا بعدهما تمثلين لجوهرين للأنا و الآخر، أو ما يمكن أن يترجم إلى الهوية والغيرية. وعليه فمفهوم الغير كاشكالية هو مفهوم فلسفي حديث؛ فقد طرح اليونان مفهوم الآخر في إطار انطولوجي عام في مقابل مفهوم الهوية أو الذات,فكل شيء هو هو بالنسبة لذاته (مطابق لذاته) وآخر بالنسبة لغيره (أي مخالف لغيره)، وبالتالي فمفهوم الآخر بوصفه المختلف يبدأ من مجرد التغاير الذي يفيد الاختلاف مع وجود تشابه إلى أن يصل إلى التضاد والتنافي أو التغاير المطلق.والتقابل الأساسي لدى اليونان كان بين الإنسان والعالم بصفة عامة وبين الشعب اليوناني والشعوب الأخرى .ولم يطرح مفهوم الهوية و الغيرية كاشكالية فلسفية إلا في الفلسفة الحديثة.

حين مراجعة الإنتاج المعرفي الذي أفرزته المقاربات المعرفية المختلفة لمفهوم الهوية، نجده ينشطر إلى اتجاهين اثنين؛ أحدهما يركز على صفة الائتلاف التي تشكل النواة الدلالية للهوية، بما هي تطابق وثبات، وآخر يراهن على صفة الاختلاف، بما هي صيرورة جدلية، وعلى الرغم من أن كلا الاتجاهين يسعى إلى وضع حد للبس الذي يعتري المفهوم وذلك بتحديد خصائصه، إلا أن مثل هذا السعي سرعان ما ينكشف عن وهم؛ إذ إن التعارض بين هذين المقومين المركزيين يجعل من الصعوبة بمكان أن نستجدي إجماعا في تحديد جوهر المفهوم. وهو الأمر الذي يفتح الحقل الدلالي لمفهوم الهوية على شحنات دلالية متعددة تصل حد التناقض. وبدل أن يكون مثل هذا التعدد رمزا للتخبط المعرفي، تحول في أدبيات الباحثين إلى معادل لثرائه الدلالي، الأمر الذي دفعهم إلى اللجوء إليه بغية استنفاد هذه الشحنات الدلالية لدراسة ظواهر ذات أبعاد مختلفة، دينية و اجتماعية ونفسية وثقافية وحضارية.

وعليه لا نستغرب إن ظل هذا المفهوم حمّال أوجه، تتغير دلالته بتغير زاوية النظر وتغير الحقل المعرفي الذي يوظف من أجله. وعلى الرغم من هذا التعدد الذي يغري بالتيه الاصطلاحي، إلا أن نظرة بانورامية لما يبدو فوضى معرفية

تحيلنا على اجتماع هذا التفرق حول قيمتين أساسيتين في الإحاطة بمفهوم الهوية، ألا وهما الثبات والتغير وما يستتبعانه من جوهرانية عابرة للزمن أو ديناميكية مرهونة بالزمن. وأنصع صورة تجلت عبرها هذه الثنائية المتناقضة هي المقاربتان الكلاسيكية والحداثية لمفهوم الهوية في حقل الأنتروبولوجيا؛ فالمقاربة الكلاسيكية الكولونيالية جعلت من هذا المفهوم بؤرة مركزية في تناولها للظاهرة الإناسية وذلك لارتباطها الوثيق بالإثنية.[1] من هذا المنظور، تبدو الهوية الإثنية حقيقة جوهرية وأساسية وكونية في الحياة الاجتماعية. وهو ما يوحي بأن الهوية معطى ثابت وطبيعي. إلا أن هذه المقاربة سرعان ما تعرضت لانتقادات بنيوية حررت مفهوم الهوية من الجمود والبداهة لترميه بين أحضان الزمن فيغدو شكلا زمنيا تتحدد دلالته من خلال التفاعل بين الجماعات، كما يؤكد ذلك شتراوس الذي يرى في الهوية "بؤرة افتراضية نلجأ إليها وجوبا لنفسر بعض الأشياء لكن لا وجود لها على أرض الواقع".[2] فهي لا تعدو أن تكون حاضنة لولادة المعنى الذي لا يمكن أن يحبسه الزمن في بوتقة مغلقة، بل هو رهين التجدد بتجدد الشرط الإنساني.

وإذا كان مثل هذا التوجه الذي سعى إلى محاولة تخليص هذا المفهوم من العبء الجوهراني، قد اتسعت دائرته المعرفية لتشمل حقولا أخرى، إلا أن أنصار النظرية الجوهرانية لم يفتأوا ينبرون للذود عن هذه النزعة، قائلين أن مثل هذه المهمة تعترضها جملة من العقبات المرتبطة أصلا بطبيعة الهوية، كما يشير إلى ذلك Melucci حين يعترف بأن هذا المفهوم لا يمكن فصله، دلاليا، عن خاصية الثبات، وهو ما يجعله غير مُهيِّئ لمقاربة ظواهر تتميز بالتغير،[3] كما أن صفة الثبات، دوما ما تنبثق عن الجوهر، بينما يظل التغير والتحول رهين عوامل خارج الجوهر، بينما ينحو أنصار النظرية العلائقية إلى اعتبار الهوية علاقة تشظي وتعدد وتغير والذي من شأنه أن يحرمها من أهم خصائصها ألا وهو التماثل الذي يجعل من الشيء يطابق ذاته عبر الزمن، لتصبح خاضعة دوما لحالة من التجاذب العلائقي المفضي إلى حالات من التحولات ينتهي بتوازنات هشة ومؤقتة سرعان ما تنهار لتنطلق إلى تجاذبات جديدة تسعى من خلالها كل من الأنا والآخر إلى حالة من الاستقرار الدلالي ضمانا للأمن الوجودي الذي من شأنه أن يستدرج سؤال الهوية (من أنا؟) إلى حالة من التنويم الدلالي، في انتظار انبعاثه مرة أخرى حين تختل موازين القوى الهوياتية بين الأنا والآخر.

وهكذا ما إن نظن أننا حططنا رحالنا المعرفي حول الهوية حتى ينادي المنادي أن هناك تساؤلات وإشكالات جديدة ظهرت وتستلزم شد الرحال مرة أخرى.

[1] Voir, Amselle (Jean-Loup), (1990), Logiques métisses. Anthropologie de l'identité en Afrique et ailleurs, Paris, Payot, p.147

[2] Lévi-Strauss, Claude, (1987), Conclusions , in *L'Identité,* C. Lévi-Strauss dir, p. 317-332, Paris, PUF, p. 332

[3] Voir, Voegtli, Michaël, (2009), « Identité collective », Dictionnaire des mouvements sociaux. Paris, Presses de Sciences Po (P.F.N.S.P.), p. 296.